المحاضرة السادسة

نظرية المحاكاة

مقدمة:

إن الفكر اليوناني ممثلا في سقراط وأفلاطون وأرسطو استطاع أن يرشدنا إلى قضايا فلسفية عريقة وعميقة، وخاصة تلك التي كانت تطرح في مختلف المحاورات، ولعل موضوع المحاكاة من بين تلك المناظرات التي حظيت بنقاشات جدية، ومنه فإن نظرية المحاكاة تعد من أقدم وأهم النظريات التي كان لها دور فعال في تطوير حركة النقد الأدبي.

1- نظرية المحاكاة عند أفلاطون 347 ق م:

المحاكاة في بداياتها فكرة صدرت عن فلسفة أفلاطون المثالية العقلية في كتابه المدينة الفاضلة، وآراء لأرسطو في كتاب فن الشعر.

والمعنى اللغوي المحاكاة في اللغة العربية هي مصدر وفعله حكي، ويُقال حكيت فلانًا أو حاكيته أي: فعلت نفس فعله، أو قلت مثل قوله، فالمحاكاة تعني المماثلة والمشابهة في الفعل والقول، وممّا ورد أيضًا عنها في القاموس المحيط أنّ كلمة المحاكاة مأخوذة من حكوت الحديث أحكوه أي نقلته، وحكيت فلانًا حاكيته أي: شابهته وفعلت فعلًا يشبه فعله، وإنّ مفهوم المحاكاة أخذه العرب عن اليونان، وكان المصطلح المستخدم سابقًا هو الحكاية، إلى أن جاء عصر المترجمين فاستخدموا المصدر الميمي المحاكاة.

إنّ هذه النظرية ارتبطت بالأدب من اللحظة التي قال فيها أفلاطون إنّ الشعر هو فن قائم على التقليد، أي: على المحاكاة، ومن هنا بدأ النقاد والأدباء والدارسون يهتمون بهذه الجزئية، لا سيما أنهم يميلون إلى الأدب الذي ينقل الواقع ويصوره، لأنّه يكون أكثر موثوقية وصدقًا واتصالًا بالقرّاء.

توسع أفلاطون في موضوع المحاكاة، وظل يفسّر حقائق الوجود ومظاهره، وعنده أن **الحقيقة، وهي موضوع العلم** ، ليست في الظاهرات الخاصة العابرة، ولكن في المثل أو الصور الخالصة لكل أنواع الوجود ، وهذه المثل لها وجود مستقل عن المحسوسات، وهو الوجود الحقيقي، ولكنا لا ندرك إلا أشكالها الحسية التي في الواقع وهي ليست سوى خيالات لعالم المثل، وعالم الصور الخالصة هو عالم الحق والخير والجمال التي هي مقاييس لما يجرى في منطقة الحس، وجميع ما في عالم الحس محاكاة لتلك الصور.

يقومُ مفهوم المحاكاة في الأدب عند أفلطون على مبدأ أنّ ما في الواقع هو تقليد أو محاكاة لما هو موجود في عالم المُثُل، فالشاعر يقلّد الأشياء الموجودة حوله دون أن يعيَ طبيعتَها، وبذلك يكون شِعره هو تقليد التقليد، فهو بعيد عن الحقيقة بدرجتين.

وعن صعوبة المحاكاة في الشعر قال أفلاطون: "الخلق الرصين الهادئ قلما يبدي ميلًا إلى التقليد الشعري، وإن الناس الذين اعتاد الشعراء المثول أمامهم بأشعارهم لا يقدرون التلقيد، ولا يقدرون تعب الشعراء فيه"

وذهب أفلاطون بعيدا في تأطيره لنظرية المحاكاة، فهو يرى أن لكلِّ شيء محسوس حقيقةً معقولة، **والمعقولات هي الأصل في المحسوسات**، وإذا كانت المحسوسات تُدرك بالبصر، فالمعقولات ــ أيضاً ــ لها وجود مستقل ويمكن إبصارها بتوجيه النفس نحو إدراكها، وهذا ما يقصده أفلاطون في تعريفه للفلسفة أنها: " رؤية الحق أو البصر بالمثال".

وعلى ما سبق فأفلاطون يفسر بالمحاكاة كل حقائق الوجود ومظاهره، وأن الحقيقة في المثل أو الصور الخالصة لكل أنواع الوجود، وهذه المثل لها وجود مستقل عن المحسوسات وهو الوجود الحقيقي، فنحن لا ندرك سوى أشكالها الحسية التي هي في الواقع خيالا ت لعالم المُثل، ويصور لنا ذلك بأسطورة الكهف المشهورة بقصة رمزية، قصة جماعة من الناس عاشت مُكَبَّلَة بالأغلال في كهف تحت الأرض، وتمنعهم أغلالهم من النظر خلفهم لأن وجوههم تقابل جداراً تنعكس عليه صور التماثيل والأشخاص الذين يمرون خارج الكهف، وتنعكس أشباح هذه الأشياء بسبب النار الموجودة خارج الكهف على الجدار الذي تسمرت عيون الجماعة عليه، فهم لا يعرفون ولا يسمعون إلا أشباح الأشياء المتحركة على الجدار والأصوات التي يعتقدون أنها تبعث منهم، ثم تصور أن هذه الجماعة ولدت وعاشت على هذه الحالة، وهي تعتقد جازمة بأن كل ما تراه أمامها هو الحقيقة التي لا يداخلها شك، والفيلسوف وحده هو الذي يقدر على تخليصهم من الأوهام التي اعتادوها زمناً طويلاً، وهو الذي يجرؤ على كسر أغلالهم وإخراجهم من الكهف المظلم إلى عالم النور والشمس، فالكهف رمز للعالم المحسوس وإدراك الأشباح هو المعرفة الحسية، والخلاص من الأسر يتم بالجدل، والشمس خارج الكهف هي مثال الخير، والفيلسوف هو الذي يرتقي بنفسه وبأقرانه من العالم الزائف إلى العالم الحقيقي.

واللغة بدورها محاكاة لما ندركه من الأشياء التي هي بدورها محاكاة لعالم المثل ، فالكلمات محاكاة للأشياء بطريقة تخالف محاكاة الموسيقى والرسم لها ، والحروف التي تتألف منها الكلمات هي أيضاً وسائل محاكاة ، وفي هذا تدل المحاكاة عند أفلاطون على العلاقة الثابتة بين شيء موجود ونموذجه في عالم المثل، والتشابه بينهما يمكن أن يكون حسناً أو سيئاً أو ظاهراً .

والمحاكاة بذلك بعيدة عن الأصل بثلاث درجات (اللغة محاكاة للواقع والواقع محاكاة لعالم المثل)، وكلما ابتعدنا درجة ازددنا بعدًا عن الحقيقة، ولذلك أصبح الشعراء عند أفلاطون وبناءً على رأيه كذبة، ومن غير المسموح أن يكونوا في جمهوريّته الفاضلة، وبالإضافة إلى ذلك ينبغي طردهم من تلك الجمهورية؛ حتى لا يُفسِدوا على الناس سعادتهم الحقيقيّة.

وقسم أفلاطون بذلك المعرفة إلى مراتب: فأدناها الخيال الحسي الذي تبتدئ فيه خيالات الأشياء وظلالها ومظاهرها، كمظهر الحصان أو السرير، وأرقى من المرتبة السابقة مرتبة الإدراك النوعي للموجودات، كماهية الحصان أو المنضدة، وأسمى منها مرتبة الكلية ومعرفة الصور الثابتة الخالدة.

ويشبه أفلاطون عمل الشاعر بالمرآة التي تقدم صورة فوتوغرافية حرفية للواقع وبذلك فهو يقدم لنا صورة مزيفة، أما إذا حرف في تلك الصورة بزيادة أو نقص فهو كاذب. إذن فعمل الشاعر ليس له قيمة أو فائدة لأن ما نحتاجه هو الحقيقة في الأصل، وليس الصورة القائمة على المحاكاة.

غير أنّ أفلاطون قَبِلَ بعض أنواع الشعر الملحمي والديني والذي يمجد ابطال الآلهة والعظماء، وأشترط عدم تعارض قصائدهم مع قيم الخير وأن يطلع ح ا رس الفضيلة على قصائدهم كي يقبلها في مدينته الفاضلة.

2- نظرية المحاكاة عند أرسطو 230 ق م:

جاء أرسطو وورثَ مصطلح المحاكاة في الأدب عن أستاذِه أفلاطون، ولكنّه أعطاه معنًى مختلفًا، وكان هذا الاختلاف نتيجةً لاختلاف النظرة الفلسفيّة، إذ كان أفلاطون ذا نزعة صوفية غائية، بينما كان أرسطو ذا نزعةٍ علمية تجريبية، ومع أنّ أرسطو كان يرى أن الفنّ محاكاة، إلا أنّه لم يربط نظرية المحاكاة بنظرية المُثل الأفلاطونيّة، ولم يقيّد الفن أو الأدب بقيود الفلسفة.

وأرسطو ينظر إلى الشعر على أنّه محاكاة للطبيعة، ولكنّ الطبيعة ليست محاكاة لعالم عقلي، والشاعر عندما يُحاكي الطبيعة **فهو يحاكي ما يمكن أن يكون لا ما هو كائن**، وبناء على مفهوم المحاكاة في الأدب عند أرسطو تُرجَع الفنون كافّة ومنها الشعر إلى أصلٍ فلسفيّ واحد هو محاكاة الحياة الطبيعيّة، فأرسطو يعيد الشعر إلى غريزتين إنسانيتين هما: غريزة التقليد، وغريزة التناغم والإيقاع والأوزان.

ويرى أرسطو بأن الفنان حين يحاكي فإنه يتصرف في المنقول فهو يحاكي ما هو كائن وما يمكن أن يكون احتمالا، فحين يرسم الرسام منظرا للطبيعة لا يجب أن ينقله كما هو بل عليه ان يحاكيه ويرسمه كأفضل ما يمكن أن يكون، فالطبيعة ناقصة والفن يتمم ذلك النقص، إذن فالشعر عنده مثالي وليس نسخة طبق الأصل عن عالم المثل.

ولم يوافق أرسطو على ربط الشعر بقوى خارجة عن الطبيعة الإنسانية، بل جعل الدافع له مرتبط بطبيعة الإنسان من خلال غريزة المحاكاة ومن ثم ربط الأدب والفن بالطبيعة الإنسانية.

إن الشعر في نظرية المحاكاة ليس إلهاما خارجيا بل تتطور المحاكاة مع الدربة والممارسة، فالشعر صنعة تقوم على الدربة والممارسة والشاعر بقدر تمرسه يكون تفوقه.

ووظيفة الشعر عنده تتمثل في تطهير نفس المتلقي، فالفن عموما يساعد على تحقيق التوازن داخل نفس المتلقي حين ينفره من الشر ويصور له الحق والخير طريقا للسعادة وهنا تكمن وظيفة الشعر، إذ يرى أرسطو ان التراجيديا تنمي عاطفة الشفقة والخوف لتجعل المشاهد أكثر قوة من خلال التطهير فهي

تسمح لنا بتصريف عواطفنا المكبوتة(البكاء في التراجيديا والضحك في الكوميديا)من تكون أكثر توانا من الناحية العاطفية فتشعر بال ا رحة بعد المشاهدة.

ويجعل أرسطو أهمية كبرى للمحاكاة فهي قوام الشعر، **وغريزة في الإنسان تظهر فيه** منذ الطفولة ، وهي التي تميزه عن سائر الحيوانات لكونه أكثر استعداداً لها وبها يستطيع الإنسان أن يكتسب معارفه الأولية ويجد اللذة والشاهد على هذا ما يجري في الواقع . ومن خلال التصنيفات التي حدثت مع أرسطو في تقسيمه الشعر المسرحي إلى نوعين : تراجيديا وكوميديا، حاول بعض العرب أن يطبق هذا التقسيم على الشعر العربي ، فيعتمد على ما لاحظه أرسطو من أن الشعراء الأخيار مالوا إلى محاكاة الفضائل، والشعراء الأراذل مالوا إلى محاكاة الرذائل ، وما فهمه من تلخيص ابن سينا من أن التراجيديا محاكاة ، ينحى الى منحى الجد ، والكوميديا محاكاة ، ينحى إلى منحى الهزل والاستخفاف ، فيجعل ذلك أساساً لتقسيم الشعر العربي الغنائي إلى طريق الجد ، وطريق الهزل .